الحضارة

ونصيب مصر منها

وما ينبغي لها أن تستعيره من حضارة الغرب الحديثة وما لا ينبغي لها أن تستعيره منها

لطفي السيد

الحضارة ما تكوّنهُ الأمة من الامور الحسية والمعنوية التي تحفظ بها حياتها وقوتها وتضمن بها سلامتها ورقيها . وأرى أن للحضارة مظاهرَ وعناصرَ وأساساً . فأما المظاهر فهي ما تقيمه الامة من مبان ، وما تصنعهُ من أثاث وتتزيّن به من زيّ ، وما تتّخذه من طرق ، وتنشئهُ من تناطر ، ووسائل للنقل ومعامل ومدارس ومستشفيات ، وملاجيء ودور للملاهي ، وقوانين ونظم منزلية واجتماعية وسياسية وحربية وتعليمية ، وغير ذلك من مرافق الحياة . وأما العناصر فهي المواد التي تقوم عليها هذه المظاهر ، وهو العلوم والفنون والآداب وفي مقدمتها اللغة ، والعادات والتقاليد والآداب . وأما الأساس فهو القاعدة التي ترتكز عليها هذه العناصر وهو روح الامة أو مزاجها النفسيُّ والعقليُّ أو اخلاقها وعقائدها . فان لكل امة روحاً أو مزاجاً نفسيًّا وعقليًّا تنسج حضارتها على منواله وتعدُّها على مثاله ، وهذا الروح أو المزاج هو تراث اجدادها ووليد بيئتها وطبيعة بلادها منذ آلاف السنين

ولما كانت الحضارة من صنع الانسان ، وكان الانسان ككل حيّ من الاحياء النباتية والحيوانية ، في تغير دائم وتقدم مستمر كانت حضارته وهي من صنعه ، في تغير دائم وتقدم مستمر مثله . فلغتهُ كانت في اول امرها إشارات ثم صارت اصواتاً بلامقاطع ، كاصوات العصافير ثم اصواتاً بمقاطع أي حروفاً ثم كلمات كل منها اسم وفعل معاً ، وليس لها حروف معان . ثم ما زالت في ترقيّ مستمر حتى صار لها اسماء وأفعال وحروف معان ومشتقات تشتق منها على صيغ مختلفة منظمة مطردة . ومسكنه كان في أول امره كهوفاً ومغاور وقمم اشجار ، ثم صار أخصاصاً من عيدان الاشجار منضمّة من أعلاها ثم حظائر من الاحجار ، ثم ما زال يرتقي حتى بلغ ما بلغ اليوم ، ومنهُ الطبخات المركبة والمعجنات المحكمة والقصور الفخمة في أنحاء العالم . وكساؤه كان في أول امره من طين يدهن به جسمهُ ، ثم من ورق الشجر يخصفه عليه ، ثم من

جلود الحيوان ثم من منسوجات غير مخيطة يرتديها ويأتزر بها ، ثم ما زال هذا الكساء في تغير وتقدم مستمر حتى بلغ ما بلغ الآن من فاخر الثياب . وهكذا كل ما كان من صنع الانسان، من الأمور الحسية والمعنوية خاضع لسنة النشوء والارتقاء ، وهي سنة مطردة لا يشذ عنها شيء من هذا الصنع ولا ينقض هذه السنة ما قد يصيب الحضارة أحياناً من صدمات تصدها عن التقدم او تؤخرها او تميتها إماتة . لأن هذه الصدمات عارض لا يلبث ان يزول ، ولا تلبث الحضارة ان تنهض من كبوتها وتنتعش وتستأنف تقدمها ، وقد تعود أقوى مما كانت وأسرع خطى الى الرقي

وقد كانت مصر أقدم الدول وأرقاها حضارة ، وكانت حضارتها مثلاً فذاً رائعاً تحتذيه الدول القديمة في بناء حضارتها . فمصر لذلك تعد بحق أم الحضارة القديمة . واذ كانت الحضارة الحديثة وليدة الحضارة القديمة كانت مصر أمّ الحضارتين القديمة والحديثة معاً ولا تزال ذات حضارة خاصة عظيمة ملائمة لروحها تمام الملاءمة ، وربما فاقت في بعض نواحيها مثيلاتها في أرقى الدول وان أصيب الآن بعضها بالاضمحلال

ولا يضير مصر ما أصاب حضارتها في عصورها المختلفة ومنها العصر الاخير من ذبول واضمحلال بل وفناء فهذه سنة أخرى من سنن الكائنات وسنة الحضارات، وهي ان يُولد الشيء صغيراً ثم يكبر فيكبر إلى أن يبلغ تمام نمائه ثم يأخذ في الاضمحلال فالفناء ثم يعود مرة اخرى، وهكذا دواليك فهي إن ضعفت اليوم ستقوى غداً كما ضعفت وقويت غير مرة في الازمنة الغابرة

والحضارة المصرية في تغير دائم وتقدم مستمر . وإن اعترى هذا التقدم صدمات صدّته صدّاً عن المضي في سبيله ، وهي الآن في نهوض من كبوتها التاسية التي رقدت فيها اكثر من خمسة قرون إبّان العهد التركي غير ان هذا النهوض تستره مظاهر خلابة من الحضارة الغربية الحديثة تغر الجاهل وتخدع الغافل ، فلو أن إنساناً من شهداء مصر حين دخول الانكليز إياها منذ اكثر من نصف قرن قُدّر له أن يعيش هذه الحقبة بعيداً عن مصر ثم حضرها الآن لَبُهت ما يرى لشدة الفرق بين ما نحن فيه الآن وما كنا فيه في ذلك العصر القريب ، ولحسبنا ما نحن فيه دليلاً صادقاً على تقدمنا ولعددنا انفسنا كدول اوربا الراقية غير ان المتأمل الصادق النظر لا يَعُدّ مظاهر رقينا الحاضر دليلاً صادقاً على تقدمنا في الحضارة الحديثة ذلك لأن لكل أمة كما قدمت حضارة خاصة تلائم روحها، وهذا الروح تراث اجدادها وليد بيئتها وصبغة بلادها منذ آلاف السنين وهذه الحضارة الخاصة لا تمكن استعارتها، وجميع الأمم حضارة عامة تجاري في السبق فيها منذ قديم عصور التاريخ وهي دولة بينهن ، وتلك الحضارة المشتركة عامة منها بعض العلوم والفنون وآثارها الصناعية . فاذا كان منا نحن المصريين ان نتقدم الى مظاهر المدنية الغربية الحديثة العامة فلنستعرها دون عناصرها شأن كل أمة ضعيفة . ولنبقَ في هذه المظاهر المستعارة حتى كما نسبق أهلها فيها،

فاذا رآنا من لا يعرف حقيقتنا خدع بنا وظنا قد وصلنا الى مرتبة الامم الراقية فاذا تأمل ودقق أيقن اننا مازلنا أطفالاً في ميدان الحضارة الحديثة العامة

ألم نكن أول من مد الخطوط الحديدية في الشرق وسير عليها القصر البخارية والتي أنشأها لنا هو مخترع هذه القطر نفسهُ ، وذلك من قبل أن نتعلم صناعة هذه القطر وقضبانها ونصنع شيئاً منها بأيدينا . أولم نستعمل آلاف السيارات من قبل ان نتعلم صناعتها ونشيء ولو مصنعاً واحداً لهذه الصناعة ؟ او لم نستعمل الكهربائية في كثير من شؤوننا كالاضاءة والاذاعة من قبل ان نصنع مولداً واحداً بأيدينا وفي مصانعنا ؟ او لم نجر في هذا التقليد على هذا النحو في كل ما استعرناه من مظاهر القدر المشترك من الحضارة ، وبعبارة أخرى في آثار العلوم والفنون العامة المشتركة ؟ أجل اننا خطونا خطوة حسنة في سبيل الصناعة منذ الحرب العظمى وسنخطو في هذه الحرب خطوة أخرى موفقة ان شاء الله تعالى ، غير أن هذه الخطوات لا تقدر لها بجانب اغراقنا في استعارة مظاهر الحضارة الكثيرة واهمالنا عناصرها

فهذه المظاهر ليست دليلاً صادقاً على تقدمنا لانها عارية منقولة وليس شأننا في النقل كشأن الدول الحية التي ينقل بعضها عن بعض فاننا ننقل عنهم ولا ينقل أحد عنا ولا ننقل الا المظاهر ولا ينقل بعضهم عن بعض الا العناصر . نستعير نحن أجهزة الاذاعة المرسلة والمستقبلة عن الامم الغربية حتى الصغيرة منها ، وهم ينقلون عن الامة المخترعة العلم والفن نفسه لا آثارهما ، فلا تستعمل دولة جهازاً واحداً للاذاعة لا تصنعه هي بعلمها وفنها وبأيدي أبنائها وفي مصانعها . فنحن ننقل آثار العلوم والفنون ، وهي المصنوعات والمخترعات ، لا العلوم والفنون ، وهم ينقلون العلوم والفنون نفسها ، وينافس بعضهم بعضاً ، ويفوق بعضهم بعضاً فيها ، وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون

وشر من ذلك ، بل الطامة الكبرى ، والنكبة العظمى ، ان نستخف بحضارتنا الخاصة الموروثة عن آبائنا الملائمة لطبيعة بلادنا وفروعنا لثوب طرأت عليها كما تطرأ على كل حضارة فنحاول أن نتخلى عن آدابنا وعاداتنا وتقاليدنا وعن علومنا وفنوننا الخاصة وأدبياتنا ولغتنا وهي اعظم مقوماتنا ، وعن نظمنا المنزلية والاجتماعية وقوانيننا وعن زينا وغير ذلك من مظاهر حضارتنا وعناصرها ونقدم في ذلك كله بدون ضرورة ولا تفكير فما هو الا التقليد الاعمى الذي يتورط فيه الضعيف المغلوب بالقوي الغالب . وقد علمنا ان هذه المظاهر والعناصر قائمة على أساس من روح الامة او مزاجها العقلي والنفسي وان الحضارة لا يمكن تغييرها الا اذا تغير هذا المزاج وتغير هذا المزاج عسير كل العسر بطيء كل البطء فلا يتغير الا بمضي مئات السنين ، وما يلائم منه امة لا يلائم الاخرى . فهذا الذي استعرناه من مظاهر حضارة بعض الامم الخاصة وعناصرها بسرعة ، وبدون ان نصبغه بصبغتنا ، وهو لا يلائم روحنا كالزي واللباس والأثاث ، والنظم المنزلية والاجتماعية والآداب والعادات : ثوب مستعار ثالث لا يزال يخزنا

ويشوكنا ويؤلمنا حتى تمزقه شر ممزق ونطرحهُ جانباً لنعود الى ثوبنا الاول وربما تعذر علينا ان نعود له كما كنا فيه فلا ندرك القديم ولا الجديد، وقد نهلك ونفنى في تضعيف هذا التغيير

فما الثورة البلشفية الا ثورة على النظم والآداب والعادات والتقاليد التي تقيم بطرس الاكبر قيصر روسيا الشهير الى الروسيا عن الغرب، فقد كانت روسيا حتى عهده شرقية في كل شيء، فلما ولي امرها وكان قد سافر الى الغرب ودرس احواله وأعجب به أيما اعجاب كان شغله الشاغل ان تتحضر دولته بالحضارة الغربية، ثم وقف حياته وحياة شعبه ومواهبه وموارده على ذلك التحضر وسار في سبيله بأسرع من موجات الكهرباء، فخلق لهن الرجال ومزق حجاب النساء ودفعهنَّ الى الاختلاط بالرجال، ورفع موائدهم وغير ازياءهم رجالاً ونساء وآدابهم، وخرج بهم عن كل ما يألفون الى ما لا يألفون، وما يلائم روحهم الى ما لا يلائمه، وبقي يعمل على تحضيرهم بهذه الحضارة حتى تمَّ لهُ اكثر ما يريد في حياته وما اقصرها وان ظانت بجانب هذا التغيير الذي كان يجب ان يتم في مئات السنين برغبة الامة وسعيها بالتدريج فيكون وليد روحها ثم ما فيه أخلاقه يعملون على مثاله ويسوقون الامة في هذه السبيل سوقاً حتى ضاقت روسيا بالحضارة الغربية ذرعاً ونفد صبرها فقامت على بكرة ابيها بثورتها البلشفية الاخيرة التي هدمت كل نظام وقوضت اركان الحضارة الغربية المستعارة، ولم تستطع العود الى ماكانت فيه فعمت الفوضى البلاد وتفشى فيها الفساد، واصبحت خطراً على العالم يحاول اتقاءه. واذا لم تكن النظم الغربية هي السبب المباشر لهذه الثورة البلشفية فلا نزاع في ان هذه الثورة قد قضت على هذه النظم

وقد ترسمت تركيا اخيراً وهي في ثورة طاحنة خطوات روسيا فأحلت في سنوات قليلة الحضارة الغربية بما فيها من خير وشر محل حضارتها الشرقية التي كونتها ملائمة لروحها في مئات السنين واني لأرجو ألاَّ تحتفظ إلاَّ بالصالح الملائم منها وألاَّ يصيبها من جراء هذا النقل الشامل السريع ما اصاب روسيا منهُ اخيراً وألاَّ تتورَّط نحن معاشر المصريين بعدَّ هذا كله فننقل الحضارة الغربية بما فيها من غث وسمين وملائم وغير ملائم بلا حذر ولا تمييز ونحن في هدوء شامل ووقت واسع وبصيرة تامة بالامور

لقد كان لنا معاشر الشرقيين في تقدم الغرب هذا التقدم المشترك العام من الحضارة وتأخرنا فيه هذا التأخر وسيادتهُ وعبوديتنا، عزاء واحد هو اننا بعيدون عن عوامل الفساد التي تدب فيه كمدنا عن أسباب التقدم وان في هذا البعد فرصة تمكن فيها من ان نختار النافع ونترك الضار لأن اتقاء الوقوع في الضار ايسر من التخلص منهُ بعد الوقوع فيه نحن اقدر من الغرب على اجتنابه ونبذه وهم يأتونهُ مكرهين لا مختارين

ان الطريق واضح وان الحلال بيّن والحرام بيّن، ولا يمكن ان يفيد فرد وجماعة من الشر خيراً، وهذا لا ينجي من الشوك العنب، فلنا بل علينا شرعاً وعرفاً وعقلاً ان نقيد الغرب في القدر المشترك العام بين جميع الامم من الحضارة وهو العلوم والفنون الصناعية وآثارها وألاَّ

نقتصر على الآثار دون العناصر وأن نبتدع كما يبتدعون فليس في مقدور امة شرقية الآن ان تكون بمعزل عن الغرب واذا لم يكن ذلك في مقدورها كان لزاماً عليها ان تقلده في أسباب القوة وهي القدر المشترك من الحضارة بين جميع الامم وهي الصناعة والعلوم والفنون الصناعية

أما ان نستعير شيئاً من عناصر الحضارة الغربية الخاصة ومظاهرها الملائمة كل الملاءمة لروح الامة المنقولة عنها كالسنن الجميلة والأدبيات والآداب والعادات والتقاليد والنظم المنزلية والاجتماعية وغيرها فهذا ما لا يجوز ولا ينفع البتة في التقدم قيد شعرة وربما جاء على بنيان الحضارة من القواعد

ألم تكن اليابان وهي أمة في أقصى الشرق كأرقى دول الغرب حضارة في القدر المشترك العام بين الامم ؟ وها هي وقد فاق الاقدار . وهي مع ذلك لا تزال محافظة تمام المحافظة على آدابها وعاداتها وتقاليدها الدينية الوثنية وفنونها وآدابها ولغتها ؟ وهل ضع شيء من ذلك تقدمها ؟ وهل غيرت اليابان كتابة لغتها من اعلى لأسفل وجعلتها من الشمال الى اليمين وبالحروف اللاتينية بدل اليابانية كما فعل الترك ؟ وهل ترك اليابان بناء بيوتهم من الورق المقوى الملائم ليشتهم وطبيعة بلادهم وجلوسهم على مقاعد وأطئة وأكلهم الرز بقضبان صغيرة بدل الملاعق ولبسهم القباقيب ؟ وهل غيروا فنهم الجميل من تصوير وموسيقى وأغان وجعلوها غربية ؟ اللهم ان شيئاً من ذلك لم يكن . ولم يكن ليمنع قدم اليابان في اعين الدول الحية الراقية في وضع اثل من اوضاعها على انها لو قلدت الغرب الآن في بعض حضارته الخاصة لكان لها في رسوخ قدمها وتقدمها في القدر العام المشترك من الحضارة امان من الخوف واللوم

ان الحضارة كما قدمت قسمان قسم عام مشترك بين جميع الامم غربية وشرقية وقسم خاص محلي لا تجوز الشركة فيه ولكل شعب منه لون يلائمه . فاذا قضت طبائع البشر بأن يأكل القوي الضعيف وأزالت وسائل النقل الحديثة البعد الذي كان يديماً بين الامم وكان حائلاً منيعاً دون اعتداء قويها على ضعيفها وأصبح واجباً على كل أمة شرعاً وعرفاً وعقلاً أن تسابق الأمم الاخرى في القدر المشترك من الحضارة وتنفق عناصره ومظاهره وهو الصناعة والعلوم والفنون الصناعية ومخاصة منها الحربية لتحفظ حياتها بين الأمم فأي حاجة إلى تغيير الآداب والعادات والتقاليد والنظم المنزلية والاجتماعية وافساد اللغة وهي اكبر عامل في تكوين الأمم وهذا وذاك من اكبر مميزاتها وكل ذلك قائم على أساس متين من أخلاق الأمة وعقائدها المجيدة وتغييره يفسد على الامة أمرها في حاضرها ومقبل ايامها ويذهب مقوماتها وفي ذهاب هذه المقومات هلاكها وفناؤها

فاذا كنا غير راضين عن حضارتنا الخاصة لما أصابها من فساد فلنصلح الفاسد منها مع الحرص على الاستفادة بالاصل . وأما ان نتركها الى غيرها فهذا هو الضلال والخسران المبين . وقانا الله السوء ووفقنا لأسد الاقوال وأصلح الأعمال انه ولي التوفيق